جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

"مراعاة حال المعنى في النظم القرآني: مقاماته وأسراره البلاغية"

إعداد

د. عبد الخالق محمد السيد التلب
الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر الشريف

(العدد الخامس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. أكتوبر)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م)

علمية- محكمة- نصف سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

مراعاة حال المعنى في النظم القرآني: مقاماته وأسراره البلاغية.

عبد الخالق محمد السيد التلب

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، القاهرة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: AttiaDabour.2034@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف البحث إلى كشف أسرار التوكيد في النظم القرآني التي جاءت رعاية لحال المعنى، واهتماما بشأن الخبر، وتوضيح الأسرار البلاغية الكامنة من وراء ذلك التوكيد، وللإجابة عن إشكالات وأسئلة بحثية تطرح نفسها، لم اشتملت هذه الآيات على عدد من المؤكدات مع أن المخاطَب بها ليس شاكا ولا منكرا، ولا يمكن أن يقدر فيه تلك المنزلة؟ وما هي المقامات التي وردت فيها هذه المؤكدات؟ ولم استدعت هذه المقامات التوكيد فيها؟ وما السر البلاغي من وراء ذلك؟ وكيف تعانق التوكيد مع السياق كله في تجلية المعنى وفي توضيح الغرض؟ واقتضت الإجابة عن هذه الأسئلة أن يقسم البحث إلى ثلاثة مباحث: الأول: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب الله لأنبيائه ورسله. الثاني: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب الأنبياء والرسل الله. الثالث: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب المؤمنين المصدقين لبعضهم. كل مبحث منهم يضم عدة مقامات، ويحوي عددا من الآيات، متبعا في دراسة الخطة المنهج الوصفي التحليلي لبيان أن حال المعنى من الأحوال التي يجب مراعاتها عند إنشاء الخطاب، والتنبه لها عند الوقوف على أسرار الكلام؛ ولبيان كيف كانت مراعاة تلك الحال سببا في بنية الخطاب وتشكيله، وتكوين النظم وتأليفه؛ فضلا عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآيات من خصائص بلاغية، وأسرار بيانية، ساعدت في إبراز حال المعنى، وبيان مقتضى التوكيد فيه، كما كشفت عن قيمة العناية بالأخبار في هذه الآيات من خلال التعرف على السياق والمقام وقرائن الأحوال.

الكلمات المفتاحية: رعاية حال المعنى، النظم القرآني، مقامات، الأسرار البلاغية، التوكيد.

Taking into account the state of meaning in the Qur'anic systems: its stations and rhetorical secrets.

Abdul-Khaleq Muhammad al-Sayyid al-Telb
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Cairo, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
E-mail: AttiaDabour.2034@azhar.edu.eg

Abstract:
The research aims to reveal the secrets of emphasis in the Qur'anic systems that came to care for the state of meaning, and concern about the news, and to clarify the rhetorical secrets behind that assertion, and to answer problems and research questions that pose themselves, these verses did not include a number of emphases, although the addressee It is neither doubtful nor denial, and it is not possible to appreciate that position in it? And what are the points in which these affirmations are mentioned? Did not call these places of emphasis? What is the rhetorical secret behind that? How does the affirmation embrace the whole context in clarifying the meaning and clarifying the purpose? The answer to these questions required that the research be divided into three sections: The first: taking into account the state of meaning in the context of God's speech ﷻ to his prophets and messengers. The second: taking into account the state of the meaning in the context of the speech of the prophets and messengers of God ﷻ. The third: taking into account the state of the meaning in the context of the speech of the faithful believers to each other. Each section of them includes several maqamat, and contains a number of verses, following in the study of the plan the descriptive analytical method to show that the state of meaning is one of the conditions that must be taken into account when creating the discourse, and pay attention to it when learning about the secrets of speech; And to show how taking into account this situation was a reason for the structure and formation of the discourse, and the formation and composition of systems; As well as clarifying the rhetorical characteristics and secrets of these verses, which helped to highlight the meaning of the meaning, and the requirement of emphasis in it.

Keywords: Care Of The State Of Meaning, Quranic Systems, Maqamat, Rhetorical Secrets, Emphasis.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ثم أما بعد،

فمن المعلوم بلاغةً أن الأمر الدعي إلى إيراد الكلام مشتملا على خصوصية ما هو (الحال) الذي يجب أن يراعيه البليغ في إبداعه، والذي يستدعي من المتكلم أن يأتي كلامه على صورة مخصوصة وهيئة مقصودة، وهذه الأحوال متعددة ومتفاوتة، فمنها حال المتكلم نفسه على اختلاف أنواع المتكلمين، ومنها حال المخاطَب المتلقي للخطاب على اختلاف أنواع المخاطبين، ومنها حال المعنى المخاطَب به على اختلاف أنواع الأخبار، ومنها حال الزمان والمكان الذي وقع فيهما الخطاب على تنوع الأماكن واختلاف الأزمان، ومنها الدواعي والمؤثرات المصاحبة للخطاب نفسه على تعددها وتغايرها، كل ذلك تبعًا لتنوع المقامات وتعدد السياقات، وعليه فإن صور الكلام البليغ تتعدد، وتراكيبه تتفاوت؛ تبعا لاختلاف تلك الأحوال؛ لأن لتلك الأحوال مقتضيات يجب اعتبارها في نظم الكلام، ومجيء الكلام مطابقا لتلك المقتضيات –بعد توفر شرط الفصاحة– هو عين البلاغة.

وقد عني البلاغيون بتفصيل القول في مراعاة حال المخاطَب في الإخبار، ولأجل ذلك قسموا الخبر إلى ثلاثة أقسام: "ابتدائي" ويخاطب به خالي الذهن، و"طلبي" ويخاطب به الشاك أو المتردد، و"إنكاري" ويخاطب به المنكر الجاحد، والأول لا يحتاج إلى توكيد، والثاني يستحسن أن يُؤكد بمؤكد واحد، والثالث يجب أن يؤكد بعدد من المؤكدات على حسب درجات الإنكار، ثم هم لما وجدوا أخبارا خرجت عن هذه الأضرب الثلاث، ذهبوا إلى فكرة التنزيل والتأويل، فحين وجدوا أخبارا في فصيح القول وردت مؤكدة بأكثر من مؤكد، والمخاطَبُ بها غير شاك أو منكر، جعلوها من باب تنزيل

خالي الذهن منزلة الشاك أو المتردد، أو من باب تنزيل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من علامات الإنكار.

لكن باستقراء آيات القرآن الكريم تظهر لنا إشكالية في هذه القاعدة؛ إذ نجد كثيرا من الآيات الكريمة جاء النظم فيها مشتملا على التوكيد، وليس المخاطب فيها منكرا جاحدا أو شاكا مترددا، كما لا يمكن –أيضا– ادعاء أن ينزل تلك المنزلة؛ ذلك لأن هذه الآيات جاءت في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله، أو في سياق خطاب الأنبياء والرسل لله ﷻ، أو في سياق خطاب وقع بين المؤمنين المصدق بعضهم بعضا دون شك أو تردد ناهيك عن ادعاء إنكار أو جحود، فاعتبار التوكيد في مثل هذه الآيات أنه جاء مناسبة لحال المخاطَب مما لا يمكن ادعاؤه؛ لأن ذلك يأباه السياق الذي وردت فيه تلك الآيات.

إذًا فهناك من الأحوال غير حال المخاطب هو الذي استدعى التوكيد في نظم هذه الآيات، هذا الحال هو حال المعنى نفسه، والاهتمام بالخبر ذاته، ولذا جاء البحث تحت عنوان: "مراعاة حال المعنى في النظم القرآني: مقاماته وأسراره البلاغية" **بهدف** كشف أسرار التوكيد في النظم القرآني التي جاءت رعاية لحال المعنى، واهتماما بشأن الخبر، **وتوضيح** الأسرار البلاغية الكامنة من وراء ذلك التوكيد، **وللإجابة** عن إشكالات وأسئلة بحثية تطرح نفسها، لم اشتملت هذه الآيات على عدد من المؤكدات مع أن المخاطَب بها ليس شاكا ولا منكرا، ولا يمكن أن يقدر فيه تلك المنزلة؟ وما هي المقامات التي وردت فيها هذه المؤكدات؟ ولم استدعت هذه المقامات التوكيد فيها؟ وما السر البلاغي من وراء ذلك؟ وكيف تعانق التوكيد مع السياق كله في تجلية المعنى وفي توضيح الغرض؟

واقتضت الإجابة عن هذه الأسئلة أن يقسم البحث إلى **ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله.

المبحث الثاني: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب الأنبياء والرسل لله ﷻ.

المبحث الثالث: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب المؤمنين المصدقين لبعضهم.

كل مبحث منها يضم عدة مقامات، ويحوي عددا من الآيات، ثم خاتمة مدون فيها أهم النتائج والتوصيات، تبعها ثبت المصادر والمراجع، بعده فهرس الموضوعات، متبعا في دراسة الخطة **المنهج الوصفي التحليلي** لبيان أن حال المعنى من الأحوال التي يجب مراعاتها عند إنشاء الخطاب، والتنبه لها عند الوقوف على أسرار الكلام؛ ولبيان كيف كانت مراعاة تلك الحال سببا في بنية الخطاب وتشكيله، وتكوين النظم وتأليفه؛ فضلا عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآيات من خصائص بلاغية، وأسرار بيانية، ساعدت في إبراز حال المعنى، وبيان مقتضى التوكيد فيه، كما كشفت عن قيمة العناية بالأخبار في هذه الآيات من خلال التعرف على السياق والمقام وقرائن الأحوال.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أنبه إلى أنني لم أجد دراسة اختصت بهذا الموضوع وقامت بمعالجته غير إشارات نبّه إليها بعض أهل العلم، كانت هذه الإشارات –فيما أحسب– كما يصف عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ): "كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج"[(١)]، من مثل ما ذكره الشيخ عبد المتعال الصعيدي

(١) دلائل الإعجاز: ٣٤.

(ت١٣٩١هـ) إذ ذكر أن التوكيد في الكلام لا ينحصر في دفع التردد أو الإنكار، فقد يأتي لأغراض: "منها الدلالة على استبعاد الحكم من المخبِر (ويعد هذا من رعاية حال المتكلم)...ومنها الاعتناء بشأن الحكم (ويعد هذا من رعاية حال المعنى)...ومنها تهيئة النكرة للابتداء بها (ويعد هذا من رعاية قواعد علم النحو)...ومنها إظهار صدق الرغبة في الحكم وقصد ترويجه (ويعد هذا من رعاية حال المتكلم)..."[١]، وكذا من مثل ما ذكره العلامة الدكتور محمد أبو موسى قائلا: "وقد يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام عند المخاطب، وتقريره في نفسه، وإن كان غير منكر له..."[٢]، فكانت مثل هذه التنبيهات مرشدة إلى موضوع البحث وداعية إليه؛ للوقوف على مقاماته والتعرف على أسراره والكشف عن أغراضه في النظم القرآني.

هذا، والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) بغية الإيضاح مع الإيضاح: ٣٩/١.

(٢) خصائص التراكيب: ٦٠.

المبحث الأول: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله.

فمما لا شك فيه أن أنبياء الله ورسله هم صفوته من خلقه، وهم الذين طهرهم الله ﷻ ظاهرا وباطنا، وهم المعصومون من كل عيب ونقص بشري، وهم المنزهون عن أدنى شك أو ريب، فضلا عن ادعاء إنكار أو جحود، كما أنه لا ينبغي في حقهم أن ينزلوا منزلة الشاك المتردد أو المنكر الجاحد، وعلى هذا فمقتضى الحال –كما قرر البلاغيون– أن تكون الأخبار التي يخاطبهم الله ﷻ بها خالية من التوكيد؛ لأنهم المبلغون عن الله ﷻ المتلقون لتلك الأخبار بكامل الإذعان والإقرار.

لكن الناظر في النظم القرآني يجد هناك كثيرا من الأخبار التي خاطب الله ﷻ بها أنبياءه ورسله قد جاءت مشتملة على التوكيد منسوجة بمزيد من التثبيت والتوثيق، وسبب ذلك –فيما أحسب– أن تلك الأخبار روعي فيها حال المعنى نفسه، ومضمون الخبر ذاته، فلخصوصيةٍ ما في المخْبَر به، ولمزيةٍ ما في المعنى المقصود، كان الكلام –في مقامات بعينها– مشتملا على التوكيد، وفيما يأتي تفصيل لهذه المقامات وتوضيح لتلك المعاني، وبيان للأسرار البلاغية فيها.

أولا: مقام تقرير التوحيد.

إن تقرير الوحدانية وإثبات تفرد المولى ﷻ بالألوهية هو المقصد الأسمى في المقاصد القرآنية، وتلك القضية أكثر القضايا حضورا في النظم القرآني الكريم خاصة في عهده المكي؛ لكي يعالج ما كان عليه القوم من كفر وإشراك وعبادة أوثان، ولذلك فإن هذه القضية تأتي –غالبًا– في النظم القرآني وهي متلفعة بثوب التوكيد ومشتملة على كثير من أدوات التثبيت والتحقيق؛ نظرًا لأهمية تقريرها، وحرصًا على العمل بمقتضاها، فناسب أن تأتي هذه القضية وهي مشتملة على عدد من المؤكدات حتى ولو كان المخاطَب المباشِر بتلك القضية منزهًا عن الشك والإنكار؛ لأنه إمام

الموحدين والمبلغ عن رب العالمين أعني سيدنا محمدًا ﷺ، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾(سورة محمد) خطابا لرسول الله ﷺ مشتملا على أكثر من مؤكد ليناسب حال المعنى نفسه من تقرير الوحدانية لله ﷻ وتفرده بالألوهية، مع دوام العلم بذلك والعمل به، ولذا يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ): "لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك..." (١).

فنجد أن الآية الكريمة صدرت بالأمر بالعلم في قوله: (واعلم) وهذا الطلب في بداية الآية الكريمة القصد منه الثبات والدوام، وجيء به في مطلع الآية قصدا إلى استنصات المتلقي ولفت ذهن المخاطَب للعناية بمضمون الخبر، وتحقيق مضمون الكلام، وقد ورد هذا الأسلوب في غير موضع في القرآن الكريم لزيادة التأكيد والتقرير، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (سورة البقرة)، وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ (سورة البقرة)، وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (سورة الحديد) ولذا يقول عنه ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ): إنّ "من أساليب الكلام البليغ أن يفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب فهم بـ (اعْلَم) أَوْ (تعلَّم) لفتًا لذهن المخَاطَب"(٢)، وفي موضع آخر يذكر قائلًا: "لما أريد تحقيق الخبر افتتح

(١) الكشاف: ٣٢٤/٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٣١٤/٩.

بالأمر بالعلم؛ لأنَّهُ في معنى تحقيق الخبر، كأنَّه يقول: لا تشُكُّوا في ذلك، فأفاد مفاد إنَّ"(١).

إذًا فأول المؤكدات في الآية قوله (فاعلم)، ثم التوكيد بـ (أنّ) وباسمية الجملة مع دلالة النفي والاستثناء على القصر الذي يفيد قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وفي توجيه الأمر بالتوحيد إلى من لا يتصور منه ﷺ تخلف الأمر عنه نوع آخر من التوكيد؛ لأن في هذا التوجيه دلالة على شدة اقتضائه وطلبه، والحرص على تحصيله، حتى إنه ليطلب ممن هو به قائم وله ملازم، ولن تجد مثل هذا التوكيد في غير كلام الله رب العالمين، كل هذه المؤكدات ليست لمراعاة حال المخاطَب – فيما أحسب– بل جاءت لمراعاة حال المعنى؛ لتقرير مضمون الكلام، وللاعتناء بشأن الإخبار.

وباستقراء آيات القرآن الكريم نجد أن تقرير الوحدانية والإخبار عن تفرد المولى ﷻ بالألوهية –غالبًا– ما يأتي بأسلوب التوكيد، حتى ولو كان المخاطب غير منكر أو شاك مما يدل على أن تأكيد المعنى فيه ليس منصرفا فقط إلى مراعاة حال المخاطب، وإنما –أيضا– لمراعاة حال المعنى وللاهتمام بشأن الخبر، وأحسب أن ما جاء منها على غير توكيد فهو من باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، مما ينبغي أن يبحث في سياقه عن الغرض البلاغي من وراء ذلك الخروج، كمثل تنزيل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره لوضوح الحجج وإقامة البراهين، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (سورة النحل) وهو ما أكده البقاعي (ت٨٨٥هـ) في ذكره وجه مناسبة الاستئناف في الآية، وخلوها من

(١) السابق: ٢/٢٣٠.

المؤكدات؛ إذ يقول: "ولما كانت أدلة البعث قد ثبت قيامها، واتضحت أعلامها، وعلا منارها، وانتشرت أنوارها، ساق الكلام فيها مساق ما لا خلاف إلا في العلم بوقته مع الاتفاق على أصله؛ لأنه من لوازم التكليف، ولما اتضح بذلك كله عجز شركائهم، أشار إلى أن منشأ العجز قبول التعدد؛ إرشاداً إلى برهان التمانع[١]، فقال على طريق الاستئناف لأنه نتيجة ما مضى قطعاً: {إلهكم} أي أيها الخلق كلكم، المعبود بحق {إله} أي متصف بالإلهية على الإطلاق بالنسبة إلى كل أحد وكل زمان وكل مكان {واحد} لا يقبل التعدد – الذي هو مثار النقص – بوجه من الوجوه"[٢]، ويزيد ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) الأمر وضوحا بقوله: "ولكون ما مضى كافيًا في إبطال إنكارهم الوحدانية عريت الجملة عن المؤَكِّد تنزِيلًا لحال المشركين بعد ما سمعوا من الأدلة منزلة من لا يظن به أنه يتردد في ذلك"[٣].

إذًا جاءت الجملة خالية من التوكيد؛ لأن ما تقدم من دلائل قاطعة وبراهين ساطعة يدل لا محالة على زيف آلهتهم وإبطال معتقداتهم، كما يدل على أن تفرد المولى ﷻ بالألوهية مما ينبغي ألا يتردد فيه متردد أو يشك فيه شاك؛ لظهور دلائله ووضوح آياته.

(١) يقصد ببرهان التمانع: حجة عقلية عند علماء الكلام خلاصتها: أنه لو كان خالقان لاستبدّ كلٌّ منهما بخلقه فكان الَّذِي يقدر عليه أحدهما لا يقدر عليه الآخر ويؤدِّي إلى تناهي مقدُوراتِهما، وذلك يبطل الإلَهيَّة، فوجب أن يكون الإله واحدًا، ولو أراد أحدهما إحياء جسم والآخر إماتته لم يصح ارتفاع مرادهما؛ لأنَّ رفع النَّقيضين محال، ولا وقوعهما للتَّضاد. (ينظر البرهان في علوم القرآن: ٣/٤٦٨، ٤٦٩)

(٢) نظم الدرر: ١١/١٣٣.

(٣) السابق: ١٤/١٢٧.

ثانيا: مقام التحذير من الشرك أو مخالفة المنهج.

في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله نجد أسلوب التوكيد حاضرا بشكل كبير في مقام التحذير من الشرك، والترهيب من مخالفة المنهج، ومعلوم أن الأنبياء والرسل –صلوات ربي وتسليماته عليهم– لا تتأتى منهم تلك المخالفة، ولا يقع منهم هذا المحذور؛ لعصمتهم من ذلك، ومجيء الترهيب لهم يقتضي ممن خلفهم أن يكونوا في غاية الحذر وشدة الحيطة من المخالفة، فينظروا كيف نهى الله ﷻ من لا يتأتى منه فعل المنهي عنه؟! وكيف حذّر من يستحيل عليه فعل المحذور منه؟! دلالة على أن أمر الشرك والتحذير من مخالفة المنهج في حد ذاته معنى يستدعي التأكيد عليه وزيادة الاعتناء به، ولذلك نجد مجيء هذا المعنى في النظم القرآني دائما ما يكون مصحوبا بالتوكيد عليه والتشديد فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (سورة الزمر) ومعلوم أنه ﷺ لا يكون منه هذا الأمر أبدا، وكذا الرسل من قبله –صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين– ولذلك فقد قرر أهل العلم أنه من خطاب الخاص المراد به خطاب العام؛[1] زيادة في معنى التخويف والتحذير والترهيب، فالكلام وارد "على سبيل الفرض، والمحالات يصح فرضها لأغراض"[2]، لكن يبقى أن الخطاب وُجِّه للرسول ﷺ ولو على فرض المحال؛ ليكون أشد ترهيبا لمن وراءه، ولذا يذكر ابن العربي (ت٥٤٣هـ) عن بعضهم أنه: "هو خطاب للنبي ﷺ على طريق التغليظ على الأمة، وبيان أن النبي ﷺ على شرف منزلته لو أشرك لحبط عمله،

(١) ينظر روح المعاني: ٣٢١/٢.
(٢) الكشاف: ١٤٢/٤.

فكيف أنتم؟ لكنه لا يشرك لفضل مرتبته"[١]، وكذا يذكر البقاعي (ت٨٨٥هـ) قائلا: "والخطاب للرؤساء على هذا النحو – وإن كان المراد به في الحقيقة أتباعهم – أزجر للأتباع، وأهز للقلوب منهم والأسماع"[٢]، وجاء مشتملا على عدد من المؤكدات، مما يدل على أن النظم القرآني –هاهنا– راعى حال المعنى واهتم بشأن الخبر، وفي توجيه النهي إلى من يستحيل عليه أن يأتي بالمنهي عنه نوع آخر من أنواع توكيد الكلام؛ لأنه يشعر بخطورة المنهي عنه، حتى إنه لينهى عنه من لا يتصور وقوعه منه، ولن تجد مثل هذا التوكيد في كلام الناس، هذا فضلا عن التوكيد الذي جاء في طيات الخطاب نفسه، من اللام الموطئة للقسم مع قد في قوله: (ولقد) مع تأكيد جواب القسم بلام التأكيد ونون التوكيد الثقيلة في قوله: (ليحبطن) وكذا في قوله: (ولتكونن) كل هذه المؤكدات تزيد في معنى التحذير والتهديد والتخويف من الوقوع في المخالفة، مما يدل على الاعتناء بمضمون الكلام، ولذلك ناسب أن يكون الأمر على شاكلة النهي في قوة الإثبات، فجاء المفعول مقدما على الفعل في قوله تعالى: (بل الله فاعبد) ليفيد الاختصاص والقصر، من باب قصر الصفة على الموصوف، أي: فخص الله –تعالى– بالعبادة دون كلّ ما سواه من الآلهة المزعومة[٣]؛ ليقرر بها وجوب التوحيد، وبذلك تتعاضد المعاني في الآيات، ففي الأولى جاء التحذير من الشرك بأبلغ ما يكون، وفي الثانية جاء الأمر بالتوحيد بأخص ما يكون، وبهذا يتآلف النظم وينسجم الكلام، فكانت المؤكدات فيه مراعاة لحال المعنى ولمضمون الكلام.

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٢٠٧/١.
(٢) نظم الدرر: ٥٤٨/١٦.
(٣) ينظر جامع البيان: ٣٢٣/٢١.

ومما يتصل بهذا المقام كل نهي جاء في القرآن الكريم موجها إلى الرسول ﷺ والمقصود بهذا النهي هو أمته من بعده؛ لأنه ﷺ معصوم من ملابسة تلك المنهيات، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ (سورة آل عمران) فقد جاء النهي فيه موجها لرسول الله ﷺ ومؤكدا بنون التوكيد الثقيلة، وهو ﷺ غير مغتر بهم ولا بأحوالهم، وإنما جاء خطابه بالنهي مؤكدًا عناية بشأن المنهي عنه، ورعاية لحال المعنى فيه، وتقريرا لمضمون الكلام في نفوس الأصحاب والأتباع، فهذه جملة نكات تتراحم ولا تتزاحم، وهذا ما أكده الزمخشري (ت٥٣٨هـ) بقوله: "الخطاب لرسول اللَّه ﷺ أو لكل أحد... فإن قلت: كيف جاز أن يغتر رسول اللَّه ﷺ بذلك حتى ينهى عن الاغترار به؟ قلت: فيه وجهان أحدهما أن مِدْرَه القوم[1] ومتقدّمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعًا، فكأنه قيل: لا يغرنكم. والثاني: أنّ رسول اللَّه ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه"[2]، وذكر أبو حيان (ت٧٤٥هـ) تلخيصا لذلك بقوله: "وملخّص الوجهين اللَّذَيْن ذكرهما (يعني الزمخشري): أن يكون الخطاب له والمراد أمته، أو له على جهة التأكيد والتنبيه، وإن كان معصوما من الوقوع فيه"[3]، وعلى كلٍ ففي توجيه النهي إلى رسول الله ﷺ مع تأكيده، حتى ولو كان المراد بالخطاب أمته، في هذا التوجيه وذاك التأكيد ما يدل على فضل عناية بحال المعنى وبشأن المنهي عنه؛ حتى نُهي عنه من لا يتصوّر فعلُه منه؛ زيادة في معنى تقريره وتثبيته.

(١) المِدْره: زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم والذين يرجعون إلى رأيه. (لسان العرب: ٤٨٨/١٣).

(٢) الكشاف: ٤٥٧/١، ٤٥٨.

(٣) البحر المحيط: ٤٨٢/٣.

ثالثا: مقام الامتنان وتقرير الإنعام.

من المقامات التي جاء الأسلوب فيها مؤكدًا رعاية لحال المعنى في النظم القرآني مقام الامتنان، وإظهار الحفاوة بالتكريم والإنعام، فنجد في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله في مقام الامتنان عليهم بعظيم العطاء ووفرة الإحسان لا يخلو النظم من أسلوب التوكيد، لا لشك أو ارتياب –معاذ الله– وإنما للاهتمام بشأن الخبر ذاته، وللإشعار بعظيم العطاء نفسه، وهو ما أكده السيوطي (ت٩١١هـ) إذ ذكر أن مقام الامتنان والتفخيم مما يقتضي التوكيد،[١] ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ (سورة الكوثر) فهذا خطاب من الله ﷻ لرسوله ﷺ يخبر فيه عن عطائه الجزيل، وامتنانه العظيم وفضله المطلق الذي لا يحصى ولا يعد، حيث امتن على الرسول ﷺ بإعطائه (الكوثر) وهو على وزن فوعل من الكثرة بناء مبالغة، ويقصد به الخير الكثير والفضل العميم في الدنيا والآخرة، أو هو النهر في الجنة[٢]، وكان افتتاح الكلام بـ (إنا) التي تفيد التوكيد اهتماما بشأن الخبر، وللإشعار بأن المعطى شيء عظيم[٣]، واستعمال الفعل (أعطيناك) دون (آتيناك) لأن الإتيان قد يكون واجبا وقد يكون تفضلا، وأما الإعطاء فهو بالتفضل أشبه، والإعطاء فيه نوع تمليك، بخلاف الإيتاء، وهذا كله مما يناسب سياق التفضل والامتنان في السورة الكريمة[٤]، وعبر عنه بالماضي لتحقق الوقوع سواء كان عاجلا أو آجلا، وأسند إلى نون العظمة لتفخيم معنى العطاء، ثم زيادة التوكيد ببناء الجملة على الاسمية للدلالة على الثبوت والدوام واللزوم، كل هذه المؤكدات جاءت

(١) ينظر معترك الأقران: ٢٧٢/١.
(٢) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣٦٩/٥.
(٣) ينظر التفسير الوسيط: ٥٢٢/١٥.
(٤) ينظر مفاتيح الغيب: ٣١٢/٣٢.

لتناسب حال المعنى وتوافق مقام الامتنان الذي يستدعي زيادة الاهتمام بشأن الخبر، وليس لشك أو ارتياب من المخاطَب.

وهكذا في غير موضع في القرآن الكريم تجد مطلع الامتنان والتكريم والتشريف مفتتحا بنون العظمة (إنا) ليفيد التفخيم والتوكيد والاهتمام، مصحوبا بمؤكدات أخرى؛ دلالة على العناية بشأن المخبر به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ (سورة الفتح)، فمع ابتداء الجملة بنون العظمة (إنا) جاءت جملة الخبر مصدرة بالفعل الماضي الدال على التحقيق، مسندا إلى نون العظمة الدالة على التفخيم والتعظيم، ثم تقديم الجار والمجرور (لك) على المفعول المطلق للعناية بضمير المخاطب، وللاهتمام بشأنه ﷺ؛ لأنه مناط التكريم والتشريف والامتنان، ثم مجيء المصدر المؤكد لفعله (فتحا) موصوفا بـ (مبينا) إمعانا في تحققه وثبوته وظهوره، كل هذه المؤكدات مما يتوافق مع مقام الامتنان والتكريم، ويتناسب مع حال المعنى فيه.

ومنه قوله تعالى أيضا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣﴾ (سورة الإنسان)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ (سورة الزمر)، وهذا ما أكد عليه ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) قائلا: "وافتتاح جملة: إنَّا أَنْزَلْنا إلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقّ، بحرف (إنَّ) مُراعًى فيه ما استعمل فيه الخبر من الامتنان. فيحمل حرف (إنَّ) على الاهتمام بالخبر"[1].

إذًا فمقام الامتنان والتكريم يستدعي عناية بمضمون الكلام فيأتي لأجله التوكيد مراعاة لحال المعنى فيه وعناية بشأن المخبر به.

(١) التحرير والتنوير: ٣١٥/٢٣.

رابعا: مقام التعليل للتثبيت والتأييد.

في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله في النظم القرآني خاصة عقب الأوامر والنواهي عادة ما تأتي جملة تعليلية تكون مشتملة على التوكيد؛ والتوكيد: "تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره"(١)، ليفيد زيادة في معنى التثبيت والتأييد، ذلك لأن التعليل يؤكد حقيقة الحكم، ويقرر واقع الحال، ويبين علة التوجيه بالأمر أو بالنهي، فيكون بمثابة الحجة المقترنة بالدعوى، وبمثابة الدليل المصاحب للقضية، فلا يملك المتلقي إلا القبول والإذعان، ويسارع في الامتثال، فمقام التعليل نفسه حال استدعت مجيء الكلام مؤكدا؛ حتى ولو كان المخاطَب أنبياء الله ورسله، المعصومين من الشك والارتياب، أو التردد في قبول الأحكام، وإنما تأتي التعليلات عقب تلك التوجيهات في مثل هذه السياقات لزيادة التثبيت والتأييد لهم صلوات ربي وسلامه عليهم، ولكل من تأسى بهم في تبليغ دعوة الحق إلى الخلق؛ لأن سبيل الدعوة محفوف بكثرة الابتلاءات التي تستدعي عادة زيادة في التثبيت والتأييد تطمينا للقلوب وتأنيسا للنفوس، وهذا ما قرره الزركشي (ت٧٩٤هـ) إذ يقول: "التعليل: بأن يذكر الشيء معلَّلا فإنه أبلغ من ذكره بلا علة لوجهين: أحدهما: أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول...، الثاني: أن النفوس تنبعث إلى الأحكام المعلَّلة بخلاف غيرها"(٢)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ (سورة النمل) فعن هذه الآية يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ): "أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلّل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشكّ

(١) الطراز: ٩٤/٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٩١/٣.

والظنّ، وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل"(١).

فقد جاءت جملة (إنك على الحق المبين) تعليلا للأمر في قوله (فتوكل على الله) وجاءت مشتملة على عدد من المؤكدات لتتناسب مع حال التعليل الذي جاء زيادة في تأنيس النفوس وتطمين القلوب، ولم يأت لأدنى شك أو تردد يكون، وإنما سوق الكلام مساق التعليل يستدعي التوكيد والاهتمام بالمضمون.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦﴾ (سورة يس)، فذكر البيضاوي (ت٦٨٥هـ) في تفسيره أنه: "تعليل للنهي على الاستئناف، ولذلك لو قرئ (إنَّا) بالفتح على حذف لام التعليل جاز"(٢)، فجملة (إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) تعليل للنهي في قوله: (فلا يحزنك قولهم) مشتملة على أكثر من مؤكد لتناسب حال التعليل الذي يفيد التسرية عن النبي ﷺ والتسلية له، كما يحمل في طياته التهديد والوعيد للكافرين، وكل ذلك مما يناسبه التوكيد الذي يتلاءم مع حال المعنى، ويتوافق مع مضمون الكلام.

خامسا: مقام تقرير أحوال المخاطَب في شأنهم ترغيبا أو ترهيبا.

في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله في النظم القرآني نجد أسلوب التوكيد حاضرا في مقام تقرير أحوال المخاطَب في شأنهم؛ ليبين عاقبة أمرهم ويكشف حقيقة مصيرهم، إما ترغيبا للتبشير بحسن مآلهم والحث على الاقتداء بهم، وإما ترهيبا للتحذير من سوء منقلبهم، والتخويف من الاحتذاء بهم.

(١) الكشاف: ٣/٣٨٣.

(٢) أنوار التنزيل: ٤/٢٧٤.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (سورة آل عمران) خطاب من الله ﷻ لرسوله ﷺ بأسلوب النهي المؤكد، لا لشك أو تردد، وإنما ليقرر في النفوس حقيقة أحوالهم المخاطَب في شأنهم، أحوال نعيم المؤمنين المجاهدين، ولينبئ عن فضل ما اختص الله به الشهداء من الثواب العظيم؛ ترغيبا في الاقتداء بهم، وتبشيرا بفضل مصيرهم، ولينفي أي غرابة قد تتعلق بمضمون الخبر؛ لأن مضمون الخبر على كونهم أحياء مع أن قتلهم يستلزم الموت، ولذا جاء الاحتراس اللطيف في قوله: (عند ربهم)، وذكر ما يكون من صفات الأحياء (يرزقون) كل ذلك ليقرر حقيقة أمرهم؛ ليدل على أن عاقبة الجهاد في سبيل الله ﷻ هي الحياة والبقاء لا الموت والفناء، وهذا ما دلَّ عليه الخبر الصحيح، فعن ابن عباس –رضى الله عنهما– قال: قال رسول اللهِ ﷺ: "لما أُصيب إخوانكم بأُحُدٍ، جعل الله ﷻ أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوِي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم، وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلُوا عن الحرب، فقال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم" فَأنزل الله ﷻ هؤلاء الآيات على رسوله: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا} [آل عمران: ١٦٩]"(١).

وهو ما أكده الطبري (ت٣١٠هـ) بقوله: "قال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ يرغِّب المؤمنين في ثواب الجنة، ويهوِّن عليهم القتل: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون"، أي: قد

(١) مسند الإمام أحمد:٤/٢١٨، حديث رقم (٢٣٨٨).

أحييتهم، فهم عندي يرزقون في رَوْح الجنة وفضلها، مسرورين بما آتاهم الله من ثوابه على جهادهم عنه"(١).

وجوّز الزمخشري (ت٥٣٨هـ) أن يكون الخطاب في الآية لرسول الله ﷺ أو لكل أحد(٢)، ومحل الاستشهاد أن يكون الخطاب لرسول الله ﷺ وعليه يكون التوكيد في النظم جاء رعاية لحال المعنى، ولتحقيق مضمون الخبر؛ لتقرير حال الشهداء والتأكيد على فضل منزلتهم، وعلو درجتهم؛ ترغيبا في الاقتداء بهم وتبشيرا بحسن مآلهم.

وقد يأتي التوكيد في خطاب الرسول ﷺ لتقرير أحوال المخاطَب في شأنهم؛ وعيدا لهم، وترهيبا من أحوالهم، وتحذيرا من صفاتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ﴾ (سورة المنافقون) ففي توكيد الإخبار في محل الشاهد (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) مع أن المخاطب هو رسول الله ﷺ دلالة على أن المراد هو تقرير أحوالهم الدنيئة، والكشف عن صفاتهم القبيحة؛ إذ يضمرون في قلوبهم غير الذي تبديه ألسنتهم؛ وفي ذلك تنبيه للمسلمين حتى لا ينخدعوا بحلاوة ألسنتهم، وبزيف أقوالهم؛ جاء هذا التوكيد تقريرا لأحوال المنافقين؛ وعيدا لهم، وتحذيرا منهم.

وعلق الطبري (ت٣١٠هـ) على الآية الكريمة موضحا ذلك قائلا: "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم أنها تشهد إنك لرسول الله، وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به، فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك، وكان بعض أهل العربية يقول في قوله: (وَاللَّـهُ يَشْـهَدُ إِنَّ

(١) جامع البيان: ٣٩١/٧.
(٢) ينظر الكشاف: ٤٣٩/١.

الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) إنما كذب ضميرهم؛ لأنهم أضمروا النفاق، فكما لم يقبل إيمانهم، وقد أظهروه، فكذلك جعلهم كاذبين؛ لأنهم أضمروا غير ما أظهروا"(١).

فقد أُكّد –هاهنا– النظم بأكثر من مؤكد ليناسب تلك الحال، فجاء النظم مبنيا على الجملة الاسمية المصدرة باسم الجلالة (الله) لإظهار العناية بشأن تفخيم الشهادة، ثم الإخبار بالجملة الفعلية المصدرة بالفعل (يشهد) وما أعظمها من شهادة؛ لأنها شهادة الحق الذي يعلم السر وأخفى، وزاد من حسنها أنها قابلت قول المنافقين إذ قالوا: (نشهد) وهي تحمل معنى الحلف، فصارت المقابلة بين الحق الذي لا باطل فيه، والباطل الذي لا حق فيه، ثم أكدت الجملة محل الشهادة بعدة مؤكدات: إن، واسمية الجملة، ولام التوكيد، كل هذه المؤكدات جاءت لتقرير كذب هؤلاء المنافقين.

ثم إن تكذيب الله لهم في ادعائهم أنهم يشهدون لرسول الله ﷺ بالرسالة، وهم ليسوا كذلك في حقيقة أمرهم؛ لأن "أصل الشهادة أن يواطئ اللسان القلب، هذا بالنطق وذلك بالاعتقاد"(٢)، وكانت جملة (والله يعلم إنك لرسوله) احتراسا مؤكدا يدفع الإيهام في أن تكذيب الله لهم كان في كونه ﷺ رسول الله(٣)، وأكد أن تكذيب الله لهم منصرف إلى قولهم: نشهد، فظهر بذلك أن التوكيد في الخبر جاء لتقرير حال المخاطب في شأنهم، أعني حال المنافقين؛ وعيدا وترهيبا وتحذيرا.

سادسا: مقام العناية بمضمون الكلام لتقريره في نفس المخاطَب.

قد يأتي الخطاب من الله ﷻ لأنبيائه ورسله مؤكدا بعدة مؤكدات في سياق العناية بمضمون الكلام؛ ليقرر في نفوسهم هذه المضامين؛ قصدا إلى

(١) جامع البيان: ٣٩٠/٢٣.
(٢) البحر المحيط: ١٧٩/١٠.
(٣) ينظر نظم الدرر: ٧٥/٢٠، وينظر معترك الأقران: ٢٨٠/١.

عدد من الأغراض البلاغية، منها ما يكون للتأنيس والتثبيت، ومنها ما يكون للتسلية والتسرية، ومنها ما يكون لنفي الغرابة، ومنها ما يكون لتحقيق الأحكام وتثبيتها.

فمما جاء الخطاب فيه مؤكدا للتأنيس والتثبيت قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (سورة الأنعام) فإن قوله تعالى: (فإنهم لا يكذبونك) خطاب لرسول الله ﷺ جاء مؤكدا ليناسب مقام العناية بمضمون الخبر لتضمنه معنى الإيناس والتثبيت، ولذا يقول الغرناطي (ت٧٠٨): "فتأمل عظيم هذا التأنيس وما تضمنه قوله: "فإنهم لا يكذبونك " من وضوح صدقه ﷺ وتصديقه فلم يبق إلا الحسد"(١).

ومما جاء الخطاب فيه مؤكدا للتسلية والتسرية والتأسي، وهو كثير في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (سورة الأنعام) فنجد التأكيد في مطلع الآية جاء ليناسب مقام التسلية لرسول الله ﷺ ليقرر مضمون الخبر في نفسه ﷺ، كما يتضمن وعدا للصابرين، ووعيدا للمكذبين، وتلك معان تستدعي التوكيد، والنكات البلاغية تتراحم ولا تتزاحم ما لم تتعارض، ولذا يذكر ابن عطية (ت٥٤٢هـ) قائلا: "هذه الآية تضمنت عرض الأسوة التي ينبغي الاقتداء بها على محمد رسول الله ﷺ وترجيته أن يأتيه مثل ما أتاهم من النصر إذا امتثل ما امتثلوه من الصبر"(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا

(١) ملاك التأويل: ٢٤٤/١.

(٢) المحرر الوجيز: ٢٨٧/٢.

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (سورة نوح) فإن مجيء التوكيد في بداية الإخبار دليل على الاهتمام بمضمون الخبر ليحصل التأسي والاعتبار والاتعاظ بما اشتملت عليه القصة من هدايات وإرشادات وتوجيهات(١).

ومما جاء فيه الخطاب مؤكدا لنفي الغرابة؛ لأن الخبر مما لا يحصل في العادة، فيأتي التوكيد ليقرر مضمون الكلام في نفس المخاطَب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ (سورة مريم) يقول البقاعي (ت٨٨٥هـ) معلقا على الآية الكريمة: "{يا زكريا إنا} أي على ما لنا من العظمة {نبشرك} إجابة لدعائك؛ وقراءة الجماعة غير حمزة بالتشديد أوفق من قراءة حمزة للتأكيد الذي جيء به؛ لأن المبشَّر به لغرابته جدير بالإنكار"(٢)، فهذا نص على أن التأكيد جاء رعاية لحال المعنى؛ إذ المبشَّر به لا يحصل في دنيا الناس عادة؛ لتعطل أسبابه، وقد أخبر السياق القرآني –قبلُ– بذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ (سورة مريم) فدلت الكناية في (وهن العظم مني) على شدة الضعف، ودلت الاستعارة التصريحية التبعية في (واشتعل الرأس شيبا) على إفادة المبالغة في إثبات ظهور الشيب وسرعة انتشاره(٣)،

(١) ينظر التفسير الوسيط للطنطاوي: ١١٠/١٥.

(٢) نظم الدرر: ١٧٤/١٢.

(٣) ينظر أسرار البلاغة: ٢٧٤، وينظر مفتاح العلوم: ٢٨٥، وما بعدها، وللعلوي (ت٧٤٥هـ) في التحليل البلاغي لهذه الآية كلام في غاية الدقة والاستيعاب، ينظر الطراز: ٢٣٠/٣-٢٣٢.

كما أن الإخبار عن امرأته بكونها (عاقرا)، والعاقر من النساء هي التي لا تحمل من غير داء ولا كبر، ولكن خِلْقة[1]، كل هذه الأحوال تدل عادةً على تعطل أسباب الإنجاب، فجاء التبشير مؤكدا ليناسب تلك الأحوال.

ومما جاء فيه الخطاب مؤكدا للاهتمام بمضمون الكلام لغرض تحقيق الأحكام وتثبيتها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ (سورة النساء)، فإن توكيد الكلام جاء مراعاة لحال المعنى كما أشار ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) قائلا: "(وَإِنَّ) فيها لمجرد الاهتمام بالخبر لظهور أن مثل هذا الخبر لا يقبل الشك حتى يؤكد؛ لأنه إخبار عن إيجاد شيء لا عن وجوده، فهو والإنشاء سواء"[2]، فمثل هذه الأخبار لا مجال فيها للشك أو للإنكار؛ حتى يكون التوكيد فيها مراعاة لحال المخاطَب، وإنما التوكيد فيها رعاية لحال المعنى؛ لأنها في معنى الإنشاء الطلبي، وحال المخاطَب مع الإنشاء الطلبي إما الامتثال أو عدم الامتثال، وليس الشك أو الإنكار؛ لأن الشك أو الإنكار يرتبطان بالاعتقاد في وجود الشيء في الواقع أو عدم وجوده، والإنشاء الطلبي لا وجوده له أصلًا، وإنما يطلب إيجاده، فعُلم أن التوكيد فيه منصرف إلى رعاية حال المعنى، والاهتمام بشأن الخبر.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ (سورة النحل) فقد ورد عن ابن مسعود (ت٣٢هـ) أنه قال: ما في القرآن آية أجمع

(١) ينظر تحفة المجد الصريح: ٣٣٠.
(٢) التحرير والتنوير: ٩١/٥.

للخير والشر من هذه الآية[١]، وهو ما أكده الحسن البصري (ت١١٠هـ) بقوله: "لم تترك هذه الآية خيرا إلا أمرت به، ولا شرا إلا نهت عنه"[٢]، فهي من إيجاز القصر، فإن العدل والإحسان يجمعان كل شيء يدخل في طاعة الله ﷻ، كما أن الفحشاء والمنكر والبغي جوامع لكل شيء يدخل تحت معصية ﷻ، ولذلك فإن ابتداء الجملة بالتوكيد للاهتمام بشأن ما حوته من أحكام وتشريعات[٣]، وليس لأدنى شك أو ارتياب.

وبهذا ظهرت لنا –فيما أحسب– مقامات التوكيد في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله، وتجلت لنا أسراره البلاغية، وأنه لم يكن التوكيد لمراعاة حال المخاطَب في شك أو إنكار، وإنما لمراعاة حال المعنى نفسه، ومضمون الخبر ذاته، فجاء التوكيد في مقامات متعددة للاهتمام بشأن الخبر، وللعناية بمضمون الكلام، وإن لم أكن وقفت على كل المقامات التي جاءت مؤكدة في خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله، فأحسب أني قد وقفت على جلّها، ويمكن أن يحمل ما لم يقل على ما قد قيل.

(١) معترك الأقران: ١/٢٢٤.
(٢) جامع العلوم الحكم: ١/٥٥.
(٣) التحرير والتنوير: ١٤/٢٥٤.

المبحث الثاني: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب الأنبياء والرسل لله جلاله.

إن من ينعم النظر في النظم القرآني يجد كثيرا من الآيات جاءت مشتملة على التوكيد في سياق مخاطبة الأنبياء والرسل الله جلاله، ولا شك أن التوكيد في مثل هذه السياقات جاء رعاية لحال المعنى وعناية بشأن الخبر، وفيما يأتي تفصيل لتلك المقامات وبيان لأسرارها البلاغية.

أولا: مقام التعليل في الدعاء؛ لإظهار التيقن من الاستجابة والرغبة فيها.

عادة ما يأتي التوكيد في النظم القرآني مصاحبا للجملة المعلِّلة عقب الطلب الذي يراد منه الدعاء؛ إظهارا للتيقن من الإجابة والرغبة في حصولها، واهتماما بمضمون الجملة المعلِّلة المصاحبة للجملة الدعائية، فنجد الأدعية التي كانت من الأنبياء والرسل لله جلاله عادة ما تختم بجملة تشتمل على التوكيد، تكون بمثابة التعليل المؤذن بإجابة الدعوة وحصول الاستجابة، ومقام التعليل –كما سبق بيانه– يستدعي التوكيد والعناية بمضمون الكلام؛ رعاية لحال المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (سورة البقرة) فجاءت جملة (إنك أنت السميع العليم) مؤكدة بعدة مؤكدات: (إن)، واسمية الجملة، وضمير الفصل، والتعريف في الطرفين الذي يفيد القصر، مع استعمال صيغ المبالغة في (السميع والعليم) مع كمال الوصف بالتعريف فيهما، كل هذه المؤكدات؛ لأنها تعليل للدعاء في قوله تعالى: (ربنا تقبل منا)، تعليل يظهر اليقين من الإجابة، والرغبة في الاستجابة، وكذلك الحال نفسه في جملة (إنك أنت التواب الرحيم) بعقب ما تقدمها من دعاء.

وهذا ما أكده البقاعي (ت٨٨٥هـ) قائلا: "ولما تضمن سؤال القبول المشعر بخوف الرد علم الناقد البصير بالتقصير علّله بقوله: {إنك} وأكده بقوله: {أنت السميع العليم}...ثم قال: {وتب علينا} إنباء بمطلب التوبة إثر الحسنة كما هو مطلب العارفين بالله المتصلين بالحسنات رجّعا بها إلى من له الخلق والأمر، ثم علّل طمعه في ذلك بأن عادته –تعالى– التطول والفضل، فقال: {إنك أنت التواب} أي الرّجاع بعباده إلى موطن النجاة من حضرته بعد ما سلط عليهم عدوهم بغوايته؛ ليعرفوا فضله عليهم وعظيم قدرته"(١).

ومنه قوله تعالى حكاية عن سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ (سورة ص) يقول أبو السعود (ت٩٨٢هـ): "{إِنَّكَ أَنتَ الوهاب} تعليلٌ للدُّعاءِ بالمغفرةِ والهبةِ معاً لا بالأخيرة فقط، فإنَّ المغفرةَ أيضاً من أحكام وصف الوهابية قطعا"(٢)، فجملة (إنك أنت الوهاب) جملة مؤكدة بإن واسمية الجملة وضمير الفصل الذي أفاد القصر، قصر صفة على موصوف، مع تعريف الطرفين، وصيغة المبالغة في (الوهاب)، كل هذه المؤكدات لتناسب معنى التعليل الذي يمهد للإجابة ويظهر التيقن من حصول الاستجابة.

ومنه قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارًا ٢٧﴾ (سورة نوح) فالتوكيد الذي جاء في مطلع الآية (إنك إن تذرهم...) جاء مراعاة لمعنى التعليل الذي يبين علّية الدعاء على قومه بهذا الهلاك، وهذا ما ذكره ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) قائلا: "وجملة: إنك إن

(١) نظم الدرر: ١٥٨/٢–١٦٠.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٢٢٧/٧.

تذرهم يضلّوا عبادك، تعليل لسؤاله أن لا يترك اللَّه على الأرض أحدًا من الكافرين"[(١)].

فعلم مما تقدم أن مقام التعليل لبيان سببية الدعاء وإظهار الرغبة في حصول الاستجابة كل ذلك يستدعي أن يؤكد الكلام عناية بحال المعنى ومضمون الإخبار.

ثانيا: مقام التضرع والاستغفار؛ اعترافا بالتقصير وطلبا للعفو والغفران.

في كثير من الآيات القرآنية نجد التوكيد حاضرا في مقام التضرع والاستغفار؛ لتقرير الاعتراف بالتقصير، والتبري من الحول والقوة، ولإظهار الضعف والخشوع، والإلحاح على الإنابة والرجوع؛ إظهارا لكمال العبودية لله ﷻ، وأدبا في خطاب رب العالمين، وهضما للنفس، وطلبا للعفو والاسترحام، ولا شك أن توكيد الكلام في هذا المقام مما يناسب تلك الأحوال؛ لأنه يدل على تشبع نفس المتضرع بتلك المعاني، ومما تجدر الإشارة إليه أن استغفار الأنبياء وتضرعهم لا يستلزم أن يكون عن ذنب، وإنما كانت توبتهم "لترك الأولى والأفضل، وأنها من باب التشديد والتغليظ؛ ليرتدع مرتكب الكبائر ولا يغفل عن التوبة"[(٢)]، وإنما هو -كما ذكر العلماء- من باب "حسنات الأبرار سيئات المقربين"[(٣)]، ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن دعاء سيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ (سورة القصص) ومنه أيضا ما حكاه القرآن الكريم عن دعاء سيدنا يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن

(١) التحرير والتنوير: ٢١٤/٢٩.

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف: ٩٣/٣.

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: مفاتيح الغيب: ٣٥٨/١٨، والجامع لأحكام القرآن: ٣٠٩/١، واللباب في علوم الكتاب: ٦/٧.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ (سورة الأنبياء) فإن توكيد الإخبار في قوله: (إني ظلمت نفسي) وقوله: (إني كنت من الظالمين) جاء موافقا لمقام التضرع والاستغفار اعتناء بمضمون الكلام واهتماما بشأن الخبر؛ ويمكن أن يحمل التوكيد فيه أيضا على مراعاة حال المتكلم –مع حال المعنى– التي تشبعت نفسه بهذا التقصير؛ لأن ذلك الاعتراف أدعى للقبول وأرجى في الاستجابة، ففي سنن الترمذي: "قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ"(١).

وروى البخاري بسنده: "عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي، قَالَ: " قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ "(٢)، وهذا من آداب الدعاء وآداب العبودية كما ذكر ابن القيم (ت٧٥١هـ) قائلا: "فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه ﷻ بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معاً، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية"(٣).

إذًا فمقام التضرع والاستغفار؛ اعترافا بالتقصير، وطلبا للاسترحام مقام يستدعي توكيد الكلام لإظهار تشبع نفس المتضرع بتلك المعاني، فكان التوكيد رعايةً لتلك الحال ومظهرًا لها.

---

(١) سنن الترمذي: ٥٢٩/٥، حديث رقم (٣٥٠٥) من حديث سعد، باب رقم (٨٢).
(٢) صحيح البخاري: ١٦٦/١، حديث رقم (٨٣٤) من حديث أبي بكر الصديق، (باب الدعاء قبل السلام) من (أبواب صفة الصلاة).
(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب: ٩١.

ثالثا: تأكيد الإخبار؛ لكون الخبر غريبا، وعلى خلاف المتوقع.

جاء النظم القرآني في كثير من المواضع مشتملا على التوكيد في خطاب الأنبياء والرسل لله ﷻ في مقام التأكيد على تحقق الخبر، وأنه لا شك في حدوثه، وأن هذا التأكيد جاء مناسبا لحالين، الحال الأولى: حال المعنى، فلكونه غريبا عجيبا احتاج في الإخبار عنه إلى التوكيد لينفي أدنى شك في حصوله، وكأن الغرابة في الخبر نزلت منزلة الإنكار، فاحتاج الكلام إلى توكيد، والحال الثانية: حال المتكلم نفسه؛ إذ جاء الخبر على خلاف ما كان ينتظر ويتوقع، فلما خالف الخبر توقعه جاء مؤكدًا ليرد على نفسه الظن الذي ظنه، والاعتقاد الذي اعتقده، وهذا الذي ذكرته مأخوذ من كلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) عند حديثه عن مواقع "إنّ" في الكلام؛ إذ يقول: "واعلم أنها قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم في الذي كان أنه لا يكون، وذلك قولك للشيء هو بمرأى من المخاطَب ومسمع: "إنه كان من الأمر ما ترى، وكان مني إلى فلان إحسان ومعروف، ثم إنه جعل جزائي ما رأيت"، فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذي ظننت، وتبين الخطأ الذي توهمت"(١).

ولهذا نجد التوكيد حاضرا في خطاب الأنبياء والرسل لله ﷻ في مواطن الشكاية من أحوال أقوامهم؛ إذ جاءت على خلاف ما يتوقعون، ومباينة لما كانوا يعتقدون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ (سورة الفرقان) قال قتادة (ت١١٨هـ): هذا محمد ﷺ يشتكي قومه إلى ربه ﷻ(٢)، وهذا ما أكده الزمخشري (ت٥٣٨هـ) حين علق على هذه الآية قائلا: "الرسول: محمد

(١) دلائل الإعجاز: ٣٢٧.

(٢) تفسير يحيى بن سلام: ٤٨٠/١.

ﷺ، وقومه: قريش، حكى الله عنه شكواه قومه إليه، وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية وتخويف لقومه؛ لأن الأنبياء كانوا إذا التجئوا إليه وشكوا إليه قومهم حلّ بهم العذاب ولم ينظروا"(١)، وذكر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) أن الكلام خبر مستعمل في الشكاية، وتأكيده بإن للاهتمام به؛ ليكون التشكي أقوى(٢).

وفي معنى (مهجورا) ثلاثة أوجه: "أحدها: أنهم هجروه بإعراضهم عنه فصار مهجوراً، قاله ابن زيد. الثاني: أنهم قالوا فيه هُجْراً أي قبيحاً، قاله مجاهد. الثالث: أنهم جعلوه هَجْراً من الكلام، وهو ما لا نفع فيه من العبث والهذيان، قاله ابن قتيبة"(٣).

إذًا فلغرابة الخبر جاء الكلام مؤكدا (إن قومي...) لأن الشأن والمنتظر أن يؤمنوا به ويعملوا بما فيه، لا أن يكون حالهم معه الإعراض والتقبيح والاستهزاء.

ومثله قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام، الذي دعا قومه قريبا من ألف سنة، ومع ذلك أصروا على الكفر والتكذيب، وتلك حال غريبة عجيبة، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ (سورة الشعراء) وكأن الإخبار جاء مؤكدا ليدل على مدى التحسر والأسف في نفسه على ما كان من تكذيب قومه، والظن ألا يكون هذا حالهم فقد جاء على خلاف المتوقع، ولذا يقول البقاعي (ت٨٨٥هـ): "ولما كان الحال مقتضياً لأن يصدقوه لما له في نفسه من الأمانة، وبهم من القرابة، ولما أقام على ما دعاهم إليه من الأدلة مع ما له في نفسه من الوضوح، أكد الإخبار بتكذيبهم؛ إعلاماً

(١) الكشاف: ٢٧٧/٣.
(٢) ينظر التحرير والتنوير: ١٧/١٩.
(٣) النكت والعيون: ١٤٣/٤.

بوجوده، وبأنه تحققه منهم من غير شك، فقال: {إن قومي كذبون}"[1]، وتلك حال يناسبها التوكيد؛ مراعاة لمضمون الكلام، وتقريرا لمعنى الإخبار، وبهذا يكون توكيد الكلام في خطاب الرسل والأنبياء لله ﷻ لا يخلو من كونه تعليلا يكون بعقب الدعاء رغبة في الإجابة وإظهارا لليقين في الاستجابة، أو تحقيقا لمعنى التضرع والخشوع والاستغفار وتشبع النفس بذلك؛ اعترافا بالتقصير وطلبا للعفو والغفران، أو تقريرًا لمضمون الخبر؛ لكونه غريبا وعلى غير المتوقع.

(١) نظم الدرر: ١٤/٦٦.

المبحث الثالث: مراعاة حال المعنى في سياق خطاب المؤمنين المصدقين لبعضهم.

إن المتتبع للنظم القرآني يجد كثيرا من الآيات جاءت مشتملة على التوكيد في سياق خطاب المؤمنين فيما بينهم، الذين يصدق بعضهم بعضا، ولا يتردد أحدهم في قبول الخبر الذي يلقى إليه من صاحبه، ومع ذلك تجد كثيرا من الآيات القرآنية جاءت مشتملة على أسلوب التوكيد، مقرونة بأدوات التثبيت والتحقيق، ولا شك أن التوكيد في مثل هذه السياقات لم يكن مقصورا على رعاية حال المخاطب وحده، بل جاء مصاحبا لرعاية حال المعنى نفسه وعناية بشأن الخبر ذاته، وفيما يأتي تفصيل لتلك المقامات وبيان لأسرارها البلاغية.

أولا: مقام التعليل.

من المعلوم أن ذكر الشيء مصحوبا بعلة أبلغ من ذكره خاليا من العلة؛ لأن النفوس تأنس بذكرها فيكون ذلك أدعى لزيادة قبول الأخبار والإذعان بالأحكام(١)، ولذا فإن الأخبار المعلِّلة التي تخاطب بها المؤمنون فيما بينهم جاءت مؤكدة لتناسب حال التعليل الذي يقتضي التوكيد زيادة في معنى التقرير والتثبيت.

وقد جاءت هذه الأخبار المؤكَّدة المعلِّلة في سياقات متعددة لأغراض بلاغية متنوعة:

منها: **زيادة التقرير بلفت الانتباه وإزالة موضع التعجب والاستغراب.**

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧﴾ (آل عمـــران)

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن: ٣/٩١.

فالآية الكريمة –هاهنا– تحكي حوارًا وقع بين سيدنا زكريا عليه السلام والسيدة مريم عليها السلام، ولا شك أن ما أخبرت به السيدة مريم فيما حكاه القرآن من قولها (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) حقيقة مقررة لا يتردد سيدنا زكريا –عليه السلام– في قبولها والإذعان بها؛ لأنه نبي من أنبياء الله ﷻ يعلم حق العلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب، إذًا فهو إخبار بأمر لا تردد ولا شك للمخاطب فيه، فمقتضى الظاهر في ذلك أن يأتي بغير توكيد، وإنما جاء مؤكدا ليناسب حال المعنى؛ لأن المعنى فيه على تعليل جواب الاستفهام الذي يفيد معنى التعجب والاستغراب فيما حكاه القرآن عنه (أنى لك هذا) لأن ما رآه من الرزق عندها خارج عن عادة البشر.

"حيث رأى عند مريم فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء غير متغيرة عن حالها"[(١)]، فكان الجواب (قالت هو من عند الله) وكانت الجملة المؤكدة (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) تعليلا يراد منه التذكير ولفت الانتباه، وإزالة موضع التعجب والاستغراب؛ زيادة في تقرير الأخبار، وهو ما أكده البقاعي (٨٨٥هـ) بقوله: "ولما أخبرت بخرقه سبحانه وتعالى لها العادة علّلت ذلك بقولها مؤكدة تنبيهاً على أن ذلك ليس في قدرة ملوك الدنيا: {إن الله} أي الذي له الإحاطة الكلية..."[(٢)]، فلكل هذا استدعى حالُ المعنى التوكيدَ مراعاةً للمقام الوارد فيه.

ومنها: التعليل لزيادة التثبيت والاطمئنان.

ففي خطاب النبي صلى ﷺ لسيدنا أبي بكر الصديق –رضى الله عنه– فيما حكاه القرآن الكريم في ذكر الهجرة المباركة يقول الله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

(١) تأويلات أهل السنة: ٢١٩/٧.

(٢) نظم الدرر: ٣٦١/٤.

ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة التوبة) فنجد أن جملة (إن الله معنا) واقعة موقع التعليل للنهي في قوله (لا تحزن) ومعلوم أن التعليل من المقامات التي تستدعي توكيد الكلام، حتى ولو كان المخاطب غير شاك أو متردد، والدليل على ذلك ما نحن فيه من أن الآية الكريمة –هاهنا– خطاب من النبي ﷺ لصاحبه –الذي ثبتت صحبته بنص القرآن– وهو الصديق، ولقب الصديق كاف في رد أدنى شك أو تردد في قبول إخبار رسول الله ﷺ له، ولذلك يقول الألوسي (ت١٢٧٠هـ) معلقا على الآية الكريمة: "وفيها النص على صحبته –رضي الله تعالى عنه– لرسول الله ﷺ ولم يثبت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ سواه...ومن هنا قالوا: إن إنكار صحبته كفر، مع ما تضمنته من تسلية النبي ﷺ له بقوله: لا تَحْزَنْ، وتعليل ذلك بمعية الله سبحانه الخاصة المفادة بقوله: إِنَّ اللَّهَ مَعَنا، ولم يثبت مثل ذلك في غيره"(١).

فكان مقتضى الظاهر على ذلك أن تأتي جملة (إن الله معنا) خالية من التوكيد، لكن المقام استدعى التوكيد وألح عليه؛ إذ النهي عن الحزن في قوله: (لا تحزن) والحال تستدعي الحزن والخوف من أن يرى المشركون رسول الله ﷺ وصاحبه، فيلحقون الأذى بهما، فقد روى عن أبي بكر الصديق أنه قال: " كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ المُشْرِكِينَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا، قَالَ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»"(٢)، فاحتاج النهي في تلك الحال إلى تعليل مؤكد

(١) روح المعاني: ٢٩١/٥.

(٢) صحيح البخاري: ٦٦/٦، رقم الحديث (٤٦٦٣) بَابُ قَوْلِهِ: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠]

زيادة في التثبيت والاطمئنان، وإلا فسيدنا أبو بكر لم يشك لحظة في نصر الله ﷻ وتأييده لرسوله ﷺ ومن كان مع رسول الله فهو في معية الله ﷻ، وعليه فإن الإخبار هاهنا–فيما أحسب– جاء مؤكدا؛ لأنه تعليل جاء بعد النهي قُصد به زيادة التثبيت والاطمئنان.

ومنها: **التعليل لزيادة الاحتياط وأخذ الحذر.**

جاء الخبر مؤكدا في سياق حوار أصحاب الكهف فيما بينهم، ومعلوم أن بعضهم يصدق بعضا، ولا يشك أحدهم في كلام الآخر، ومع ذلك جاءت بعض أخبارهم لبعض مؤكدة؛ إذ وقعت موقع التعليل لغرض زيادة الاحتياط وأخذ الحذر، وهذا المعنى مفهوم من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة الكهف) فإن الإخبار في قوله (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم) لم يأت مؤكدا لشك أو تردد كان ظاهرًا في حال المخاطب، وإنما كان التأكيد لأنها جملة تعليلية لما تقدمها من قوله تعالى (وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا)، ولذا يقول البقاعي (ت٨٨٥هـ): "ولما نهوا رسولهم عن الإشعار بهم علّلوا ذلك فقالوا: {إنهم} أي أهل المدينة {إن يظهروا} أي يطلعوا عالين {عليكم يرجموكم} أي يقتلوكم أخبث قتله إن استمسكتم بدينكم {أو يعيدوكم} قهراً{في ملتهم} إن لنتم لهم..."[1]، ويزيد ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) أثر مقام التعليل وضوحا بقوله: "والنون لتوكيد النهي –يقصد في يشعرنّ– تحذيرا من عواقبه المضمنة فِي جملة: إنهم إن يظهروا

(١) نظم الدرر: ٣٩/١٢.

عليكم يرجموكم، الواقعة تعليلا للنهي، وبيانا لوجه توكيد النهي بالنون، فهي واقعة موقع العلة والبيان، وكلاهما يقتضي فصلها عما قبلها، وجملة: إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم، علة للأمر بالتلطف والنهي عن إشعار أحد بهم"(١).

وعليه فإن مقام التعليل في خطاب المؤمنين فيما بينهم يأتي الإخبار فيه مؤكدًا لا لشك يكون من المخاطب، وإنما مراعاة لحال معنى التعليل الذي يؤتى به لغرض من الأغراض، منها ما يكون للفت الانتباه وإزالة التعجب والاستغراب، ومنها ما يكون لزيادة التثبيت والاطمئنان، ومنها ما يكون لأخذ الحذر والاحتياط.

ثانيا: مقام الاعتناء بشأن الخبر لإظهار تحقق وقوعه.

في سياق خطاب الملائكة للأنبياء والرسل نجد كثيرا من الأخبار جاءت مشتملة على التوكيد لا لشك كان في تلقي الخبر من المخاطبين، ولكن كان التوكيد اعتناء بشأن الخبر ذاته لإظهار تحقق كينونته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾(سورة العنكبوت) فإخبار الملائكة في خطاب سيدنا إبراهيم عليه السلام جاء مؤكدًا في قولهم: (إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) مراعاة لحال المعنى، واعتناء بشأن الخبر كما نص على ذلك الألوسي (ت١٢٧٠هـ) بقوله: "والتأكيد في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر"(٢)، كما أن إضافة (مهلكو) إلى (أهل هذه القرية) دلت على تحقق وقوع الإهلاك، وفي السر البلاغي من مجيء المظهر في موضع المضمر يقول الخفاجي (ت١٠٦٩هـ): "وقال (إنّ

(١) التحرير والتنوير: ٢٨٦/١٥.
(٢) روح المعاني: ٣٥٩/١٠.

أهلها) دون (إنهم) مع أنه أظهر وأخصر تنصيصًا على اتفاقهم على الفساد"[1]، فكان في التعبير بالاسم الظاهر (أهلها) دون الضمير (إنهم) زيادة في تسجيل الظلم عليهم؛ ليكون أوضح علة في استحقاقهم هذا المصير من الإهلاك والتعذيب.

وكذا عندما نستقرئ القرآن الكريم نجد جميع الأخبار مؤكدةً إذا أريد منها الاهتمام بشأن الخبر والنص على تحقق وقوعه، حتى ولو كان المخاطب بهذه الأخبار غير منكر أو شاك؛ لأن التأكيد حينئذ جاء مراعاة لحال المعنى نفسه ومناسبة لشأن الخبر ذاته، ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن حوار (بلقيس) مع الملأ من قومها، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (سورة النمل) "فافتتاح جملة: إن الملوك بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وتحقيقه"[2]، فهذا التأكيد منها تقرير لتلك الحقائق التي ذكرتها عن أحوال الملوك إذا دخلوا قرية –محاربين لها– أفسدوها بالتخريب والدمار، وصيروا أهلها أذلة بالقتل والأسر، ولذا كان ختام الآية (وكذلك يفعلون) تصديقًا من الله ﷻ لقولها، فإنه من الجمل التي تساق في الكلام معترضةً للتقرير[3].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ (سورة الأعراف) ففي هذه الآية الكريمة نجد أن نبي الله هارون –عليه السلام– خاطب أخاه رسول الله

(١) حاشية الشهاب: ٩٨/٧.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٦٦/١٩.
(٣) ينظر الكشاف: ١٠٩/١.

موسى –عليه السلام– بأسلوب التوكيد في إخباره عما كان من القوم وما حدث منهم، فقال (إن القوم استضعفوني...) ولا شك أن هذا التأكيد جاء مناسبًا لحال المعنى ومراعيًا للمقام الذي ورد فيه، فإن التأكيد على استضعاف القوم له يهدئ من ثورة أخيه عليه التي جعلته يطرح الألواح من فرط الدهش وشدة الغضب، ويأخذ بمجاميعه، فأخذ يرقق قلبه بهذا النداء (قال يا ابن أم) وعادة العرب أن تتحنن وتتحبب بذكر الأم خاصة، فإضافته "إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد. وذلك أدعى إلى العطف والرقة، وأعظم للحق الواجب، ولأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها"(١)، ثم قدّم في الإخبار أداة التأكيد (إن القوم...) ليدل على تحقق الوقوع، وعلى الاهتمام بشأن هذا الخبر؛ لأنه محل العناية وعليه مدار الترقيق، وفيه كناية على أنه لم يدخر وسعا في وعظهم وزجرهم، ولكنهم استضعفوه وغلبوه وكادوا يقتلونه، وهذا ما أكده أبو حيان (ت٧٤٥هـ) بقوله: "والجملة بعده –يعني بعد النداء– المقصود بها تخفيف ما أدرك موسى من الغضب والاستعذار له بأنه لم يقصّر في كفهم من الوعظ والإنذار وما بلغته طاقته، ولكنهم استضعفوه فلم يلتفتوا إلى وعظه، بل قاربوا أن يقتلوه، ودل هذا على أنه بالغ في الإنكار عليهم حتى هموا بقتله"(٢)، والحالة هذه تستدعي من التوكيد ما يفي بالغرض ويناسب المقام.

ثالثا: مقام التوصية والتوجيه.

إن الوصية عادة ما تكون من الأب لبنيه، خاصة عند الخوف من دنو الأجل ومفارقة الحياة، ومن المعلوم شفقة الرجل على أبنائه وحرصه عليهم، والحالة هذه تقتضي ألا يكون المخاطب بتلك الوصية شاكا

(١) الكشاف: ١٦١/٢.

(٢) ينظر البحر المحيط: ١٨٣/٥.

أو مترددا، ومع ذلك نجد التوكيد حاضرا في مثل هذا السياق، ذلك لأن حال الوصية نفسها يحتاج إلى مزيد من تقرير المعاني والتأكيد عليها؛ لبيان الرغبة في تحصيل الموصَى به، ولرجاء العمل بمقتضاه، ومن الشواهد الموضحة لذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ (سورة البقرة) فالآية الكريمة تحكي وصية سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبنائه، وكذا وصية يعقوب عليه السلام لأبنائه، بالتمسك بالدين والسير على المنهج، وطريقة نظمها مما يناسب تلك الحال، فمن ذلك اختيار صيغة (ووصى) التي تفيد المبالغة، ثم اختيار مادتها؛ فإن التوصية بالشيء أوكد من الأمر به "لأن الوصية عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم، فإذا عُرف أنه –عليه السلام– في ذلك الوقت كان مهتما بهذا الأمر متشددا فيه، كان القول إلى قبوله أقرب... وأنه –عليه السلام– خصص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم..." [1]، ثم التأكيد على اصطفاء الدين لهم؛ حثا على التمسك به والعمل بمقتضاه، ثم النهي عن الموت إلا على منهج الإسلام، فكأنه أمر بالتزام المنهج في كل زمان وعلى أي حال؛ لأن الموت ليس له زمان معلوم أو مكان محدود، فناسب مقام التوصية –هاهنا– أن يأتي الكلام مؤكدا حتى لو كان المخاطب به غير شاك أو منكر.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ (سورة لقمان) فإن تأكيد الإخبار بأكثر من مؤكد في قوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) لم يكن عن شك أو إنكار في حال المخاطب، ولكن ليتوافق مع مقام التوصية والتوجيه

(١) مفاتيح الغيب: ٦٤/٤.

والنصح، كما ينسجم مع مقام التعليل أيضا، فإن الوعظ هاهنا في قوله (وهو يعظه) المراد منه الوصية بما ينفع الابن ويرقق قلبه ويهذب نفسه ويوجب له الخشية والعدل، ثم إن استفتاح الوصية بهذا النداء (يا بني) الذي يحمل معنى التودد والرحمة والشفقة أدعى لقبول النصح[1]، ثم كان النهي المصحوب بالتعليل المؤكد (لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) كل ذلك لتذعن نفس المخاطب غاية الإذعان وتأنس غاية الإيناس، فتبادر إلى الالتزام بالوصية والعمل بمقتضاها.

وعليه فإن توكيد الأخبار في سياق تخاطب المؤمنين مع بعضهم البعض جاء مناسبا لحال المعنى نفسه إذ ورد في مقام التعليل على تنوع الأغراض فيه، أو في مقام الاعتناء بشأن الخبر والاهتمام به لتحقق وقوعه، أو في مقام الوصية والتوجيه لتقريرها في النفوس رغبة في تحصيلها والعمل بمقتضاها.

(١) ينظر نظم الدرر: ١٦١/١٥.

الخاتمة

وبعد هذا التطواف في تلك الدراسة يمكن أن نخلص منها إلى عدة نتائج، أهمها:

(١) أن الأحوال التي ينبغي أن يراعيها المبدع في إبداعه متعددة ومتفاوتة، فمنها حال المتكلم نفسه، ومنها حال المخاطب المتلقي للخطاب، ومنها حال المعنى المخاطَب به، ومنها حال الزمان والمكان الذي وقع فيهما الخطاب، ومنها الدواعي والمؤثرات المصاحبة للخطاب نفسه على تعددها وتغايرها، كل ذلك تبعا لتنوع المقامات وتعدد السياقات.

(٢) أن التوكيد إذا جاء في نظم الكلام فليس شرطا أن يكون مراعاة لحال المخاطب لدفع تردد أو إنكار، أو لمن ينزل تلك المنزلة، بل قد يكون مراعاة لحال أخرى من الأحوال التي تعتري الكلام.

(٣) أن مراعاة حال المعنى في القرآن الكريم كان لها أثرها الواضح في نظمه وتركيبه.

(٤) أن التوكيد مراعاة لحال المعنى تعددت مقاماته وتنوعت أغراضه في النظم القرآني.

(٥) أن التوكيد مراعاة لحال المعنى جاء في سياق خطاب الله ﷻ لأنبيائه ورسله في عدة مقامات، منها: تقرير التوحيد، ونفي الشريك، والتحذير من مخالفة المنهج، والامتنان وتقرير الإنعام، والتعليل، والعناية بمضمون الكلام، وتقرير أحوال المخاطَب في شأنهم ترغيبا وترهيبا لأغراض متعددة وأسرار متنوعة.

(٦) أن التوكيد مراعاة لحال المعنى جاء في سياق خطاب الأنبياء والرسل لله ﷻ في مقام التعليل في الدعاء؛ لإظهار التيقن من الاستجابة والرغبة فيها، وفي مقام التضرع والاستغفار؛ اعترافا بالتقصير وطلبا للعفو والغفران، وجاء أيضا في هذا السياق لتأكيد الأخبار؛ لكون الخبر غريبا وعلى خلاف المتوقع.

(٧) أن التوكيد جاء في سياق تخاطب المؤمنين المصدقين لبعضهم البعض في مقام تعليل الأخبار؛ قصدا إلى عدد من الأغراض، وفي مقام الاعتناء بشأن الخبر لإظهار كينونته وثبات وقوعه، وفي مقام التوصية والتوجيه.

هذا **ويوصي** البحث أن تقوم دراسات بلاغية في القرآن الكريم تتعلق بمراعاة بقية الأحوال في النظم القرآني، مراعاة حال المتكلم على اختلاف أنواع المتكلمين، ومراعاة حال الزمان والمكان على اختلاف الأماكن وتنوع الأزمان...وهكذا، تكشف عن أسرارها، وتظهر النكات الحاصلة من ورائها، والشواهد في ذلك كثيرة، هذا والله أعلى وأعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المصادر والمراجع

(١) أحكام القرآن لابن العربي (ت٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي (ت٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود شاكر، المدني، القاهرة، ١٤١٢هـ،١٩٩١م.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط أولى، ١٤١٨هـ.

(٥) الإيضاح للخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) مطبوع مع البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي (ت١٣٩١هـ)، الآداب، ط السابعة عشرة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٦) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط ١٤٢٠هـ.

(٧) البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، ط أولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.

(٨) بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي (ت١٣٩١هـ)، مكتبة الآدب، ط السابعة عشرة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٩) تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ)، تحقيق: مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(١٠) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

(١١) تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح لشهاب الدين اللبلي (ت٦٩١هـ)، تحقيق: عبد الملك الثبيتي، أصله رسالة دكتوراه في جامعة أم القرى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

(١٢) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي (ت١٤٣١هـ)، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة، ط أولى، ١٩٩٧–١٩٩٨م.

(١٣) التفسير الوسيط للواحدي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

(١٤) تفسير يحيى بن سلام (ت٢٠٠هـ)، تقديم وتحقيق: هند شلبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

(١٥) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ت٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط أولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

(١٦) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط سابعة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(١٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

(١٨) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي= عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين أحمد المصري (ت١٠٦٩هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

(١٩) حاشية الطيبي على الكشاف= فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي (ت٧٤٣هـ)، تحقيق: إياد محمد الغوج، جميل بني عطا الله، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط أولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.

(٢٠) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني لمحمد محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة، ط ثانية، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

(٢١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود شاكر، ط المدني، القاهرة، ١٤١٠هـ.

(٢٢) روح المعاني للألوسي (ت١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤١٥هـ.

(٢٣) سنن الترمذي (ت٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة عوض، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ثانية، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

(٢٤) صحيح البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، ط أولى، ١٤٢٢هـ.

(٢٥) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (ت٧٤٥هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ط أولى، ١٤٢٣هـ.

(٢٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) دار الكتاب العربي، ط ثالثة، ١٤٠٧هـ.

(٢٧) لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، ط ثالثة، ١٤١٤هـ.

(٢٨) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (ت٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٢٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (ت٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافعي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤٢٢هـ.

(٣٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ط أولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

(٣١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت٣١١هـ) تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، ط أولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

(٣٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

(٣٣) مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير للرازي (ت٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي، ط ثالثة١٤٢٠هـ.

(٣٤) مفتاح العلوم للسكاكي (ت٦٢٦هـ) ضبطه، وكتب هوامشه، وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ثانية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٣٥) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للغرناطي (ت٧٠٨هـ)، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

(٣٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت٨٨٥هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.
(٣٧) النكت والعيون للماوردي (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد عبد المقصود عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
(٣٨) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ط ثالثة، ١٩٩٩م.